اجنحة المدافع المصرية

لمصطفى صادق الرافعي

إستجنحي[1] يا مدافع مصر وطيري ، إن المجدَ يطلبُ منا لسانهُ البرقيّ

لقد مدّتْ لهُ القوة في هذا العصر مدّها حتى أصبح الطيرانُ بعض معاني المشي ، ولم يعُد العالَمُ يدري كيف تكون الصورةُ الاخيرةُ التي يستقرُّ فيها معنى إنسانيته

فلتستجدْ مصرُ بلسانها البرقيّ الذي تخرجُ النار بيده من أعراض السحاب ، وتُفرقعُ في أصابعهِ هزّماتُ الرّعد ، ويجعلُ في قُبّة السماء صلصلةً وجلجلةً ، ويحمل الاسم المصريُّ الى مُعلّق النجم فيضعُ له من هناك التعريف الناريُّ الذي وضعتهُ الدول العظمى لأسمائها

ولتستجدْ مصرُ بلسانها البرقيّ الذي يُشعرها حقيقةَ العلوّ العالي ، والعُمق العميق ، والسّعة التي لا تحدُّ ، ويزيدُ في معاني أحيائنا معنىً جديداً لاحياء السحب ، وفي معاني اموتنا معنىً جديداً لموتى الكواكب

إنسانٌ برقيٌّ يتمّ بشجاعته في السماء بطولةَ فلاّحنا الانسانِ الشعبيِّ في الارض ، ويعلو بكبرياء مصر الوطنيِّ في ذِروة العالَم فتظهر طيّاراتُها العظيمةُ قُدرةً في الجوّ كما ظهرت آثارُها العظيمة قدرةً في الثرى

إنها مصر . مصرُ القادرةُ التي سحرت القِدَمَ بقوتها وفنّها فبقي فيها على حاله وجلالته وانهزم الدهرُ عنهُ كأنه قوةٌ على قوة الزمن نفسها

فاستجنحي يا مدافع مصر وطيري . ان المجدَ يطلب منا لسانه البرقيّ

* * *

ولما فُتح السجلّ ذاتَ صباح لتكتبَ مصرُ اسماء الفوج الاول من نُسورها الحربيين ، صاح مجدُها الخالدُ من أعماق التاريخ :

أضرمي الشعلةَ الآدميةَ الاولى يا مصر ، وافتحي القبرَ الجويَّ الاول والوحيدي فيه من عنصريك المسلمين والاقباط ، وضعي الحياةَ في أساس الحياة ، واستقبلي عصرك الجديدَ بأذان المسجد ودق الناقوس ليباركهُ الله ، وليتلقّ الشعبُ اول طيّاريه بقلوب فيها روحُ المدرّكة وأكبادٍ عرفت مَسَّ النار ، ولا ينظرنّ الى طياراته الأُوَل إلاّ بعد ان ينظر النشين فيرى مجدَ الموت في سبيل الوطن ، فتسطعَ نظراتهُ ببريق الكبرياء

---

(١) اي اتغنى الاجنحة ولم تأت الكلمة في اللغة بهذا المعنى ولكنا استعملناها فيه قياساً على كلامهم

ولمعة العزيمة وشعاع الايمان ، ويأتلق فيها النور السماوي الذي يجعل الناس في بعض ساعاتهم كواكب ، نور صلاة الشعب على موتاه الشهداء

واستحاب القدر لصوت المجد ، فالتاج الظلام في وضح الصبح ، وانطفأ سراج النهار في قبة الفلك ، وأطبقت نواحي الجو إطباق ليلة تساقطت اركانها ، وأقبل الضباب يعترض اعتراض جبل عاتٍ يتذبذب في بحر ، واستأرض السحاب فتخلى عن طبيعته السماوية الرقيقة ، وتنادمت العناصر على القتال بعضها بعضاً ، وتغشت السماء بوجه الموت كالح قاربد وانتفخ وتكسرت فيه الغيون كل غيض كسفة ظلام ، وعاد أوسع شيء أضيق شيء فكان الفضاء كصدر المحتضر ليس سعة الا عشر ساعة وأنفاسها

وانتدرت الى مجد الموت الطيارة المصرية الاولى وكان فيها انكليزيان يقودانها فأباها الموت فذهبت فانتحرت أسفاً وتردت متحطمة وانسل الرجلان من مخالب الردى وكانا في الطيارة كورقتين من النبت في فم جرادة هشمت تقضمهما . . . .

وتستبق الثانية فاذا فيها وديعة الكرم من عنصري مصر «حجاج ودوس[1]» وكان سراً من اسرار مصر اجتماعهما في مداحض الغمام ومزالقه ليكونا هدية مصر الاولى الى مجدها الحربي ، ثم ليكونا هدية المجد الى إحساس هذا الشعب يحس منهما العالم المنظور له في مستقبل النصر

واعتسفت طيارة الشهيدين طريق الفناء ومتاهة الحياة ، فذهبت عنها معارف الارض وعميت عليها معالم السماء ، وخرجت من تصريف أيدي البطلين الى تصريف أجلهما ، وأصبحت كأنها تطير في الانفاس الباقية لهما فما تتقدم ولا تتأخر ، ولم تعد طيارة يحملهما بل جناحاً ممدوداً لهما من رحمة الله

ثم اجترتها الموت الى غوره فانحطت من الهواء جاثمة كالطائر يطلب ملجأ في العاصفة ثم انتهضت واثبة وتمطرت منقلبة فاشتملت فاستعرت فأنضجت راكبيها رحمهما الله

وكثيراً ما يكون منظر الحزن في الحياة هو انهماك الحياة في عمل جديد تبدع منه السرور والقوة . احترق البطلان لتسلم مصر في نعشهما رماداً لن يبنى تاريخ العزة الوطنية الا به

فاستجنحي يا مدافع مصر وطيري . ان المجد يطلب منا إنسانه البرقي

* * *

صنعت النار الآدمية الحقيقة ، ووضعت لنا الاسم البديع الذي نطلقه على

(١) هما فؤاد حجاج وشهدي دوس ، وكان في الطيارة الاخرى التي تحطمت المستر بليت والمستر سميث

طيّاريه الأبطال ، فلا تشعُرهم نُسور الجو ولكن سموهم « جَرّات الجو »

صنعت نارُنا الحقيقة ، وأوحت الينا أن نستبدلَ من انفسنا حالة بحالة ، وأن نُفاجئ شعورنا الخالد فنصدمه بآلام اليقظة المرّة ، وأن نغير قاعدة الحياة في القرية المصرية فلا تكون : العيشَ العيش ولكن القوة القوة

صنعت النارُ الحقيقة ، وأثبتت لنا ان الحياة إن هي الاّ اداةٌ للحي وليس الحيُّ اداةً للحياة ، فليتصرّف فيها على قوانين الروح وآمالها فيسمُوَ ويسمو ، ولا يدَعْها تتصرف على مذاهب اقدار المادة وتصاريفها فيُذِلّها وتُذِلّه . وفي قانون الروح : لا قيمة لعالم الاشياء الاّ كما تُصْلِحُ لنا ، وفي قانون المادة وضَغْطة الحياة : كما تصلحُ لنا وكما نصلِحُ لها .....

بَلى ، قد صنعت النارُ الآدميةُ الحقيقةُ وأعطتنا قصةَ الحرية كاملةً في معنى واحد ، وهو أن هذه الحرية لعاشقيها كأجل الجبلات للمتنافسين عليها : جمالها متوحش ، وخلاعتها مُفْتَرِسة ، وظَرْفُها سَفّاكٌ للدم

فاستجبني يا مدافع مصر وطيري . ان المجد يطلب منا انسانه البرقي

* * *

والى السماء يا « جَرّات الجو » ، فاذا استويتم على السحاب فليست الطيارةُ ثَمّ طيارةً بل حقيقةً حيةً عاملة المجد ، فلتحملْ معناها المصري من بطلها المصري

واذا سبحتم في مهبط القدَر فليس الطيّارُ ثَمّ طياراً بل حياةً عبقريةً أرسلتها مصر تستنزلُ للحياة اقداراً سعيدة

واذا خضتم في المعْرَكِ الضَّنْك تتبعثر فيه الآجالُ على الرياح فليس الجسمُ المصريُّ هناك من لحم ودم بل ناموساً طبيعيّاً ماضياً الى غاية

واذا تَقَاذفتم في بحر الشمس فأنتم هناك على شِباكٍ طرحتموها لصيد أيام مضيئة تلتمع في تاريخ مصر

واذا نفذتم من أقطار السماوات فانظروها بأعينكم تلك العُلى وافهموها بقلوبكم ذاتية الوطن المصريّ تعلو وتعلو ولا تزال أبداً تعلو

انما الطيارةُ وسلاحُها وطيّارُها تأليف من الانسانية والعناصر ممتاز في الغريزة « لا بدّ » . ومتى هدرت الطيارة هديرها فانما تقول لبطل منكم : هلمّ من حال الى أعلى ، الى أكثرَ علوّاً ، الى اقصى حدود الواجب على النفس حين يأخذ الواجب الكلّ وحين تعطي النفسُ الكل

فاستجبني يا مدافع مصر وطيري . ان المجد يطلب منا انسانه البرقي